بعد أن جمعت ما جمعت من مربعات «فن الواو» من الذين التقيتهم من الحفظة والرواة .. وكلهم تعاونوا معى ولم يبخلوا على بما عندهم على قدر ما أتاحت لى ولهم ظروفى وظروفهم ، ولكننى على يقين من أنه فى المناطق - التى بدأت بها فى عملية الجمع - يوجد كثير ممن يحفظون مخزونًا كبيرا من المربعات قد يكون أضعاف أضعاف ما جمعت لكننى لم ألتق بهم بعد ، خصوصا أن بعض هؤلاء الحفظة والرواة لم يكن لديهم الحماس الكافى للإسهام فى عملية الجمع التى أقوم بها؛لأنهم - كما علمت - لم يسبق لهم أن اهتم أحد بما لديهم من «واو» محفوظ اللهم إلا ما تقتضيه جلسة تسلية يُفتح فيها موضوع الاستماع بمحض المصادفة ، إزجاء لوقت الفراغ وحتى أولئك المستمعين لا يقدرون هذا الفن حق قدره ، ولا الراوى الذى يلقيه عليهم ، والأمر الثانى

أننى لاحظت مدى الخجل والتردد البادين على وجه بعض الرواة وتعبيراتهم حينما طلبت منهم تسجيل ما يحفظون على الورق الذى أحمله معى أو على جهاز التسجيل (الكاسيت) وسبب هذا الخجل والتردد فى اعتقادى - أنهم يحجمون عن هذا العمل مع أحد المثقفين أو الذين لهم باع فى هذا الصدد !! هو - إذًا - نوع من التحرج أو الخوف من أن ينُظر إلى مايقولون نظرة استعلاء أو استحقاق من مثقف هم يعلمون - قدر استيعابهم للأمر - أن ما لديهم قد لا يعجبه .. والأمر الثانى - فى ظنى - هو انصراف الناس عنهم وعما لديهم إلى أجهزة الإعلام الحديثة والتى دخلت كل بيت - تقريبًا - فى القرى والنجوع - فضلا عن المدن - بما فى ذلك الرواة أنفسهم .. حيث إنهم استسلموا لتيار الغزو الجارف ، وعلى الأخص لهذا الصندوق الساحر الذى شغل الناس صغارًا وكبارًا ، فهو يدخل إلى البيوت دون استئذان ويشد الانتباه لا بسموّ وجدّية ما يقدم بل بسطحيته وفجاجته التى تدغدغ مشاعر الناس ولا تجهد لهم فكرا ولا تحرك لهم عقلا .

وأريد أن أسجل - هنا - أن بعض الرواة ، بعد أن تفهموا مقصدى ووقفوا على حقيقة ما أفعل استيقظ داخلهم حبهم لما

يحملون من فن وكثير منهم تبرع بوقته وجهده، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فلقد تعهد بأن يدعو الآخرين من الرواة الذين يعرفهم هو - ولا أعرفهم أنا -للإسهام فى هذا العمل الذى اقتنع بجديته فضلا عن أنه اعتبر هذا المشروع نافذة يطل منها على هذا الزمن الذى شبع لهاثا وراء الشائه والمضروب . . . لذا فلا أملك إلا أن أسجل لهم جميعا شكرى وامتنانى .

وفيما يتعلق بالبحث نفسه أقول : إن كل مربع من مربعات هذا البحث له قصة أو له مناسبة ، وكنت أتمنى أن أكتب هذا قبل كل مربع ، لكننى وجدت أن هذا قد يُفقد الشعر جلاله ، ويُفقد المتلقى جزءًا من متعته الذهبية ؛ إذ إننا نعلم أن فن الواو هو الفن الشعرى الوحيد تقريبا الذى يقسم مناصفة بين الشاعر (الراوى) والمتلقى وهذا التقسيم هو تقسيم آنى وليس مؤجلا ، فابن عروس كان يبدأ بقوله المشهور «وقال الشاعر» ثم يلقى بالمربع وسط تنبه ويقظة المستمع ؛ كى لا يفلت منه حرف أو كلمة تسهم فى حل مغاليق المربع بجناساته - التى تكون فى كثير من الأحيان موغلة فى الالتواء - ثم يسكت برهة لكى يعطى للناس فرصة فك طلاسم جناسات مربعه ، ثم يستأنف القول سائرا على المنوال نفسه .

لذلك اكتفيت بشرح معانى بعض الكلمات التى قد لا تكون

متداولة فى البيئات الأخرى أو البلاد التى تبعد عن بيئة هذا الفن فأنا أعلم أن اللهجات - رغم أنها تدور فى فلك اللغة العربية - بينها اختلافات قد تكون شاطحة بعيدا فى بعض الأحيان ، وقد دعانى هذا إلى شرح الألفاظ التى أظن أنها قد تستعصى على غير أبناء جنوب مصر - موطن هذا الفن ومراحه - واستخدمت فى هذا الشرح اللغة الفصحى باعتبارها القاسم المشترك الأعظم بين متلقى فن الشعر ، ولما كنت أجد أن تعبيرًا عاميا قد يفيد فى فهم الجو العام للمربع لم أحجم عن استخدامه فالأمر يتعلق - أولا وأخيرًا - بالمتلقى الذى نقدم له هذا التراث الثرّ والثرى أملا فى أن يتعاطف المتلقى معه ويتقبله قبولا حسنا فينفعل به ويقدره حق قدره ، إذا كان من غير المختلف عليه أن المقياس الحقيقى للأدب بل وللفن عامة هو مدى تأثيره فى الناس - نفوسهم ومشاعرهم ووجدانهم - فإننى أكاد أجزم بأن فن «الواو» ليس هناك فن قولى يبار به فى تحقيقه لهذا المقياس .

لكن فن «الواو» باعتباره جنسا أدبيا فلا بد من أن ينسحب عليه ما ينسحب على أى فن أدبى آخر من الجودة والرداءة وتلك هى طبيعة الأمور . . فإننى استمعت إلى كم غير قليل تنتابه الركاكة ، بل السطحية أحيانًا ، وقد كان يمكن للبحث أن يتجاوز هذا البعض فلا يثبته ، ولكن طالما كان الغرض من البحث هو

جمع التراث فإن أمانة البحث والجمع جعلتنى أدون كل ما قيل من هذا الفن بصورته التى سمعته بها دون تغيير أو تبديل ، كما أننى آثرت أن أسجل كل ما سمعته دون حذف أو اختيار رغم عدم رضاى عن بعضه ، ورغم أن بعضه ينتابه الخلل الوزنى فتتلقفه النثرية والترهل والطول والقصر ، وكان يمكن لى أن أقترح الصيغة الصحيحة من حيث استقامة الوزن ، وسلامة الصياغة واتساق الفكرة ، ولكن ليست هذه هى مهمة الباحث ، كما أنه ليس - أيضا - مهمته انتقاء الجيد وإهمال الردىء ؛ إذ لو فعل ذلك لكان - عندئذ - قد أعطى صورة غير صحيحة وغير أمينة عن الموضوع ، فليس الهدف تقديم مختارات من الأدب الشعبى ، وإنما الهدف عرض قطاع من هذا الفن فى صورة واقعية صحيحة ؛ وذلك لبيان أثر الشفاهية ، وإبراز دينامية الرواية ، فكثيرا ما نسمع مربعا يروى بأكثر من طريقة ، فسجلت مختلف الروايات ؛ حتى لا أغلّب رواية على غيرها ، فنكون قد أسأنا إلى التراث أيما إساءة .

وإذا كنت قد استهللت البحث بحديثى عن فنون النظم - كما يسميها صفى الدين الحلى - عند سائر المحققين وهى سبعة فنون هى : الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ، فلكى أصل إلى

فن الواو ، الذى شق لنفسه طريقا وطريقة ، كنسق موسيقى مستقل .

وفى كل حال أسأل الله - جل علمه - التوفيق ،

عبد الستار سليم

تحريرا فى صفر ١٤٢٤ هـ
أبريل ٢٠٠٣م

obeikandl.com